المثل الناري والمثل المائي
في القرآن العظيم،
وأقسام الناس فيه

إعداد: ماجد بن سليمان الرسي

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فقد وصف الله تعالى كتابه القرآن العظيم في سورة النحل بأنه ﴿تبيان لكل شيء﴾، ومما كثر ضرب الأمثال في القرآن لتحقيق هذه الغاية العظيمة، قال الله تعالى:

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون﴾.

وقال تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُون﴾.

وقال تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُون﴾.

وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون﴾.
وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلا﴾.

ومما بينه القرآن بالتفصيل أوصاف الناس على اختلاف نِحَلِهم، ومن ذلك ما جاء في سورة البقرة، فقد قسَّم الله تعالى الناس في مطلعِها أقساما ثلاثة؛ مؤمن وكافر ومنافق.

وفي هذا الجزء الصغير في حجمه، الكبير في فائدته؛ نقلت باختصار كلام الحافظ المفسر ابن كثير رحمه الله في شرح الآيات المتعلقة بوصف المنافقين، وتمثيله إياهم بما هو معروف عند علماء التفسير بالمثل الناري والمثل المائي، بعد اختصار كلامه وإجراء تصرف يسير، وحلَّيته في الهامش بكلام شيخه ابن تيمية رحمه الله، وكذلك بكلام الإمام محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي رحمه الله، الذي كان آية في التفسير.

ولا يفوتني نقل ما ذكره الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله في تفسيره بأن هذا المثل الذي ذكره الله للمنافقين أنه كاشف لهم غاية الكشف.[1]

فأسأل الله بمنه وكرمه أن ينفع بهذا البحث قارئه وكاتبه وناشره، إنه سميع قريب مجيب.

وكتب، ماجد بن سليمان الرسي، في السابع عشر من ربيع الأول، سنة ١٤٤٠ .

[1] انظر تفسير سورة البقرة، آية رقم ١٦، ط ابن الجوزي – الدمام.

- قال الله تعالى ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُون﴾

قال رحمه الله:

وتقدير هذا المثل: أن الله سبحانه شبَّههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى؛ بمن استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنَّس بها، فبينا هو كذلك إذ طَفئت ناره، وصار في ظلام شديد، لا يُبصر ولا يهتدي، وهو مع هذا أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى، لو كان ضياء لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك.

فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضا عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشد.

وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا، كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع، والله أعلم .

وقد حكى هذا الذي قلناه فخر الدين الرازي في تفسيره عن السُّدي ثم قال: والتشبيه هٰهنا في غاية الصحة، لأنهم بإيمانهم اكتسبوا أولا نورا، ثم بنفاقهم ثانيا أبطلوا ذلك، فوقعوا في حيرة عظيمة، فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين .

- وقوله تعالى: ﴿ذهب الله بنورهم﴾ أي: ذهب عنهم بما ينفعهم، وهو النور، وأبقى لهم ما يضرهم، وهو الإحراق والدخان.

- ﴿وتركهم في ظلمات﴾؛ وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق.

- ﴿لا يبصرون﴾؛ لا يهتدون إلى سبيل خير ولا يعرفونها.

- ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُون﴾؛ وهم مع ذلك (صم) لا يسمعون خيرا، (بكم) لا يتكلمون بما ينفعهم، (عمي) في ضلالة وعِماية البصيرة، كما قال تعالى: ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾، فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة.[1]

- ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِين﴾

هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضَرْبٍ آخر من المنافقين، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة، ويشكون تارة أخرى، فقلوبهم في حال شَكِّهم وكفرهم وترددهم (كَصَيِّب)، والصيب المطر، قاله ابن مسعود، وابن

---

[1] قال ابن تيمية رحمه الله: وأما قول من قال: المراد بالنور: ما حصل في الدنيا من حقن دمائهم وأموالهم، فإذا ماتوا سُلِبوا ذلك الضوء كما سُلِب صاحب النار ضوءُهُ؛ فلفظ الآية يدل على خلاف ذلك ...

انظر «تفسير ابن تيمية» (١٦٢/١)، ط ابن الجوزي – الدمام.

عباس، وناس من الصحابة، وأبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء، والحسن البصري، وقتادة، وعطية العوفي، وعطاء الخُراساني، والسُّدي، والربيع بن أنس.

وقال الضحاك: هو السحاب .

والأشهر هو المطر، نزل من السماء في حال ﴿ظلمات﴾، وهي الشكوك والكفر والنفاق.[1]

- ﴿ورعد﴾ وهو ما يزعج القلوب من الخوف، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع[2]، كما قال تعالى: ﴿يحسبون كل صيحة عليهم﴾ ، وقال: ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون * لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولَّوا إليه وهم يجمحون﴾.

- والبرق: هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضَّـرْبِ من المنافقين في بعض الأحيان، من نور الإيمان، ولهذا قال: ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين﴾، أي: ولا يُجدي عنهم حذرهم شيئا، لأن الله محيط بقدرته، وهم تحت مشيئته وإرادته، كما قال: ﴿هل أتاك حديث الجنود * فرعون وثمود * بل الذين كفروا في تكذيب * والله من ورائهم محيط﴾.

- ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ﴾

ثم قال: ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾ أي: لشدته وقوته في نفسه، وضعف بصائرهم، وعدم ثباتها للإيمان.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين .

وقال ابن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿يكاد البرق يخطف أبصارهم﴾ أي لشدة ضوء الحق.

- ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ أي كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتَّبعوه، وتارة تعرض لهم الشكوك فتظلم قلوبهم فيقفون حائرين.[3]

---

[1] قال الشنقيطي رحمه الله في تفسير هذه الآية: ضرب الله في هذه الآية مثلا لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم بالمطر، لأن بالعلم والهدى حياة الأرواح، كما أن بالمطر حياة الأجسام.

[2] قال الشنقيطي رحمه الله في تفسير هذه الآية: ضرب الله المثل بالرعد لما في القرآن من الزواجر التي تقرع الآذان وتزعج القلوب كقوله ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة﴾ الآية إلى غير ذلك من قوارع القرآن وزواجره التي خوفت المنافقين. انتهى مختصرا.

[3] قال الشنقيطي رحمه الله في تفسير هذه الآية: أي: يكاد نور القرآن لشدة ضوئه يُعمي بصائرهم، كما أن البرق الخاطف الشديد النور يكاد يخطف بصر ناظره، ولاسيما إذا كان البصر ضعيفا، لأن البصر كلما كان أضعف كان النور أشد إذهابا له.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾ يقول: كلما أصاب المنافقين من عز الإسلام اطمأنوا إليه، وإن أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر، كقوله تعالى: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به﴾ .

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ أي: يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم من قولهم به على استقامة، فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا، أي: متحيرين.

وهكذا قال أبو العالية، والحسن البصري، وقتادة، والربيع بن أنس، والسُّدي بسنده، عن الصحابة، وهو **أصح وأظهر**. والله أعلم.[1]

- وقوله: ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير﴾، قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة، أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ قال: لِما تركوا من الحق بعد معرفته.

- ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾؛ قال ابن عباس أي: إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير.

وقال ابن جرير: إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع لأنه حذَّر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط، و على إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير، ومعنى (قدير) قادر، كما أن معنى (عليم) عالم.

---

[1] قال الشنقيطي رحمه الله في تفسير هذه الآية: ضرب الله في هذه الآية المثل للمنافقين بأصحاب هذا المطر، إذا أضاء لهم مشوا في ضوئه، وإذا أظلم وقفوا، كما أن المنافقين إذا كان القرآن موافقا لهواهم ورغبتهم عملوا به، كمناكحتهم للمسلمين وإرثهم لهم، والقَسْم لهم من غنائم المسلمين، وعصمتهم به من القتل مع كفرهم في الباطن، وإذا كان غير موافق لهواهم، كبذل الأنفس والأموال في الجهاد في سبيل الله المأمور به فيه وقفوا وتأخروا، وقد أشار تعالى إلى هذا بقوله ﴿وإذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين﴾.

وقال بعض العلماء: ﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾، أي إذا أنعم الله عليهم بالمال والعافية قالوا: هذا الدين حق، ما أصابنا منذ تمسكنا به إلا الخير، ﴿وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ أي: وإن أصابهم فقر أو مرض أو وُلِدت لهم البنات دون الذكور قالوا: ما أصابنا هذا إلا من شؤم هذا الدين، وارتدوا عنه، وهذا الوجه يدل له قوله تعالى ﴿ومِن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمئن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسِر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾.

وقال بعض العلماء: إضاءته لهم معرفتهم بعض الحق منه، وإظلامه عليهم ما يَعْرِض لهم من الشك فيه. انتهى.

أقسام المؤمنين والكافرين والمنافقين في القرآن العظيم

قال ابن كثير رحمه الله في كتابه «تفسير القرآن العظيم»:

جاء في القرآن ذكر أقسام الناس، مؤمنهم وكافرهم ومنافقهم، وجاء فيه ذِكر أوصافهم الدقيقة، قال ابن كثير رحمه الله بعد ذكر آيات في أقسام الناس في القرآن:

فإذا تقرر هذا صار الناس أقساما: مؤمنون خُلَّص، وهم الموصوفون بالآيات الأربع في أول البقرة، وكفار خُلَّص، وهم الموصوفون بالآيتين بعدها، ومنافقون، وهم قسمان: خُلَّص، وهم المضروب لهم المثل الناري، ومنافقون يترددون، تارة يظهر لهم لَمع الإيمان، وتارة يخبو، وهم أصحاب المثل المائي، وهم أخفُّ حالا من الذين قبلهم.

وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه ما ذُكر في سورة النور، من ضرب مثل المؤمن وما جعل الله في قلبه من الهدى والنور بالمصباح في الزجاجة التي كأنها كوكب دُرِّي، وهي قلب المؤمن المفطور على الإيمان واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدر ولا تخليط.

ثم ضرب مثل العباد من الكفار، الذين يعتقدون أنهم على شيء، وليسوا على شيء، وهم أصحاب الجهل المركب، في قوله تعالى: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا﴾ الآية.

ثم ضرب مثل الكفار الجهال الجهل البسيط، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾.

فقسَّم الكفار هٰهنا إلى قسمين: داعية ومقلد، كما ذكرهما في أول سورة الحج: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾، وقال: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾، وقد قسَّم الله المؤمنين في أول الواقعة وفي آخرها وفي سورة الإنسان إلى قسمين: سابقون وهم المقربون، وأصحاب يمين وهم الأبرار .

فتلخَّص من مجموع هذه الآيات الكريمات أن المؤمنين صنفان: مقربون وأبرار، وأن الكافرين صنفان: دعاة ومقلدون، وأن المنافقين – أيضا – صنفان: منافق خالص، ومنافق فيه شعبة من نفاق، كما جاء في الصحيحين، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وسلم: ثلاث من كُنَّ فيه كان منافقا

خالصا، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: من إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان.

استدلوا به على أن الإنسان قد تكون فيه شعبة من إيمان، وشعبة من نفاق، إما عملي لهذا الحديث، أو اعتقادي، كما دلت عليه الآية، كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض العلماء.

***

تم المقال بحمد الله، نفع الله به كاتبه وناشره وقارئه.
أعده للنشر، ماجد بن سليمان الرسي، في ١٩ ربيع الأول من عام ١٤٤٠ هجري